# "المدرحية"
# مقاربة مادية- روحية للتطور الإنساني

د. علي حمية
الجامعة اللبنانية

## مقدمة:

ستسمعون، ربما لأول مرّة، بفيلسوف مشرقي متوسطي اسمه أنطون سعاده، اغتالته قوى محلية مشرقية (حكومتا لبنان والشام) وإقليمية (مصر فاروق) ودولية (بريطانية والولايات المتحدة) عشية قيام الدولية اليهودية الغاصبة في فلسطين، والتي أعلن سعاده الحرب عليها قبل قيامها بربع قرن، معتبراً أن لا عدو لنا يقاتلنا في حقنا ووطننا إلا هذه الدولة الغريبة ومن يقف وراءها من قوى دولية عاتية، وستسمعون، ربما لأول مرّة، بفلسفة أعلن عنها صاحبها، أي سعاده نفسه، في أربعينيات القرن العشرين المنصرم، كمقاربة جديدة أو كتأويل جديد، لقضية التطور الإنساني، بل فلسفة شاملة منبثقة عن نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن،

ونظراً لضيق الوقت المخصّص للمتداخلين في هكذا ملتقيات علمية، سأكتفي، هنا، بتقديم ملخص عن هذه الفلسفة التي أطلق سعاده عليها اسم "المدرحية"، مصطلحاً جديداً في زمرة المصطلحات الفلسفية، نحته من كلمتي "مادة" و"روح"، باعتبارهما، أي المادة والروح، يشكلان ناحيتي الحياة الإنسانية، على أن يطلع عليها المهتمون، كاملة، في منشورات مخبر "مشكلات الحضارة والتاريخ" التابع لكلية العلوم الإنسانية، في جامعة الجزائر2.

ونظراً للدور العظيم الذي قام به سعاده على الصعيد الفكري بعامة والفلسفي بخاصة، وأخذاً في الاعتبار جهل الأوساط الأكاديمية في المغرب الكبير، ومنها الأوساط الجزائرية تحديداً، بأنطون سعاده وفلسفته، بسبب محاصرة فكره في المشرق والحجز عليه هناك، لفترة طويلة، ومنع تداوله داخلياً، على مستوى الجامعات والمعاهد العلمية والأوساط الثقافية، وإهمال انتشاره خارجياً، إلا لماماً، في مصر والمغرب وسواهما من الأقطار، وإلصاق تهمة العداوة للعرب والعروبة والعمالة للقوى الأجنبية بصاحبه، كذباً وافتراءً، وعدم اطلاع هذه الأوساط كفاية على مشروعه النهضوي الكبير الرامي إلى إقامة دولة عظيمة، وفق قواعد جديدة ونظام سياسي جديد، على المقلب الشرقي للبحر المتوسط، في المنطقة المعروفة، جغرافياً، باسم سورية أو الهلال الخصيب، فقد زيّلت ورقتي بملحقين: يتضمّن الملحق الأول سيرة سعاده ومؤلفاته وأعماله الفكرية والعلمية والسياسية والتنظيمية، باعتباره، أيضاً، مؤسساً لحزب سياسي كبير في المشرق العربي المتوسطي، ويتضمن الملحق الثاني مختارات من كتابات سعاده في الفلسفة المدرحية.

### 1-الفلسفة في فكر سعاده:

في المقدمة التي وضعها لدستور الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي أسّس في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي، وصف سعاده (أنظر: **ملحق1، ص.ص 13- 20**) نفسه بـ"صاحب الدعوة" إلى القومية السورية الإجتماعية، ولكنه لم يختزل دوره في هذا الجانب الدعوي، على أهميته، بل انهمّ بجوانب أخرى- فكرية وفلسفية- على الصعيدين القومي الخاص، والإنساني العام، ولذلك ضمّن دعوته، أيضاً، نظرة فلسفية شاملة إلى الحياة والكون والفن، ما كان ممكناً له، من دونها، أن يؤسس القضية السورية على قواعد صحيحة، واضحة ومتينة. إن غاية الحزب السوري القومي الاجتماعي، يشرح في **كتاب التعاليم**(1936)، هي "قضية شاملة تتناول الحياة القومية من أساسها ومن جميع وجوهها. إنها غاية تشمل جميع قضايا المجتمع القومي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والروحية والمناقبية، وأغراض الحياة الكبرى. فهي تحيط بالمثل العليا القومية، وبالغرض من الاستقلال، وبإنشاء مجتمع قومي صحيح. وينطوي تحت ذلك تأسيس عقلية أخلاقية جديدة ووضع أساس مناقبي جديد، وهو ما تشتمل عليه مبادئ الحزب الأساسية والإصلاحية التي تكوّن قضية ونظرة إلى الحياة كاملة، أي فلسفة كاملة"[1].

ويؤكد سعاده على شمولية نظرته(والشمولية هنا لا تعني مطلقاً الكلية كما حاول كثيرون أن يتقوّلوا في فلسفته معتبرينها تقليداً أو استنساخاً للحركتين الفاشية والنازية)، في شرحه لغاية الحزب[2] بقوله أنها "لا تقتصر على معالجة شكل من أشكال السياسة، بل تتناول القومية من أساسها واتجاه الحياة القومية (..) وإنشاء تقاليد جديدة ترسخ فيها نظرتنا الجديدة إلى الحياة ومذهبنا القومي الاجتماعي"[3].

ثم يتناول هذه المسألة الفلسفية بامتياز، في كتاباته اللاحقة، وخصوصاً في مرحلة الأربعينيات من القرن المنصرم عندما اكتملت عناصر فلسفته، قائلاً إنه "جاء بمقاييس جديدة للأدب والفن ونظريات جديدة في فلسفة الاجتماع والسياسة. ولكن ظروف نشأة الحزب(...) لم تمكنه من الانصراف إلى وضع جميع هذه المقاييس والنظريات في مؤلف أو مؤلفات. ومن هذه المقاييس والنظريات ما وضعه بصورة تطبيقية عملية قبل أن يتمكن من وضعها بصورة مبدئية. وكثير من آرائه ونظرياته مبعثرة في رسائل خصوصية أو على ورقة طيارة"(4).

ويلفت الانتباه، من ناحية أخرى، إلى أن مبدأه الجديد، أي فلسفته، لا يقتصر على سورية، بلاده، بل يشمل قضايا المجتمع الإنساني كافة، ويقدّم النظرة الجامعة للمذاهب الفلسفية المتناحرة كي يتحول الصراع المميت بينها إلى تفاعل متجانس ومثمر[5].

**1-في مفهوم "النظرة الجديدة "**

يحرص سعادة كثيراً على القول بأن فلسفته منبثقة عن "نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن" وأنها تؤسس لنظام جديد للمجتمع الإنساني، ويؤكد اختلافها عن النظرات الفلسفية السائدة، في عصره، كالليبرالية والفاشية والإشتراكية القومية (النازية) والشيوعية. استخدم سعاده عبارة "النظرة الجديدة" لأول مرة عام 1941(جنون الخلود، ص 210) وهي معادل عبارة( weltanschaung) الألمانية التي استعارتها لغات أوروبية أخرى للتدليل على فكرة "النظرة إلى الحياة". أما إضافة سعاده على هذه العبارة الألمانية فتتركز على اعتبار تبني نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن شرطاً لانبثاق فلسفات وعقائد من الطبيعة نفسها، وبالتالي بداية للنهضات الكبرى في الأدب والسياسة والفن. وقد اعتبر سعاده أن المدرحية المنبثقة عن هذه النظرة الجديدة هي" نظرية فلسفية شاملة تتناول قضايا العالم الإجتماعية والإقتصادية، وتقتضي كتاباً على حدة يبحث في المبادئ الماركسية لتنظيم المجتمع والمبادئ الفاشية المازينية (Mazzinien) الروحية لتنظيم المجتمع، والصراع بين هاتين الفئتين من المبادئ، ثم مبدأ(ه) أي (سعاده) الذي يخرج من القاعدتين المتصادمتين بقاعدة واحدة عامة يمكن أن تُجمع عليها الإنسانية. وهو بحث واسع بل فلسفة كاملة في الإجتماع والتاريخ" [6].

إن ما يُميّز المدرحية، في هذا السياق، عن غيرها من الفلسفات الحديثة والمعاصرة، هو أنها تطرح نفسها كـ"نظرة جديدة" أو "تأويل" جديد للقضايا الإنسانية المعقدة، في حين أن الماركسية التي هي، في السياق الجدلي حول المادية، المعادل النظري للمدرحية، لا تكتفي بهذه الصفة، أي أن تكون، كالمدرحية، مجرّد "نظرة جديدة"، بل تطرح نفسها بوصفها "معرفة"، بل "آخر" معرفة.

إن ما تطلق عليه الماركسية، إذاً، اسم "معرفة" تدعوه المدرحية "نظرة جديدة" إلى الواقع، وما تعتبره الماركسية "ثورة" في المعرفة الإنسانية، تُسمّيه المدرحية "إضافة". ولذلك، تُصنّف الماركسية كل ما سبقها من معارف بأنها"أوهام"، في حين تعتبره المدرحية "إضافة" سابقة لأن المدرحية تصرّ على أن كل معرفة يجب أن تُقيّم بحسب إضافتها إلى ما سبقها من معارف(7).

مدرحياً، إن كل معرفة تشتمل على ما سبقها وتؤسّس لما سيأتي بعدها. وبهذا المعنى، فإن المدرحية تستوعب المعارف السابقة، فلا تنفيها أو تعزلها أو تلغيها كما تفعل الماركسية، وإنما توظفها في عملية التطور. ولذلك يقول سعاده: "إن الفكر القومي الاجتماعي [المدرحي] يمثل مفهوماً "موحّداً" للنظريات الأساسية، الجديدة والمتنافرة"(8). وعندما يقول سعاده، بهذا المعنى، أنه يُنشيء فكراً جديداً، فهذا يعني، أنه يضع قواعد جديدة تحمل منهجاً جديداً في التفكير هو، في حقيقته، "إضافة" جديدة إلى الفكر، و"تطور" جديد في المعرفة، و"قاعدة" لتطور آخر. فإذا نشأت هذه النظرة الجديدة إلى الحياة والكون والفن "أوجدت فهماً جديداً للقضايا الإنسانية، كقضية الفرد والمجتمع وقضية الحرية(...) وقضية الحق وغيرها. وبعض هذه القضايا، يقول سعاده، يكون قديماً فيتجدّد بحصول النظرة الجديدة إلى الحياة، وبعضها ينشأ بنشوء هذه النظرة"(9).

الفارق كبير، إذاً، بين الماركسية والمدرحية، وأن كانت كلاهما، بحسب أصحابهما، تهدف إلى تحقيق الخير العام للمجتمع الإنساني. ولكن، كيف يمكن معرفة إسهام فلسفة ما في خير المجتمع الإنساني وتقدّمه حين لا تكون الإنسانية مجتمعاً واحداً ذا نظرة واحدة للخير، يسأل محمد معتوق أحد المتخصّصين في فكر سعاده(مجلة اتجاه، العدد21، ربيع 2006، ص 165)؟ صحيح، أن الفلسفة الصحيحة، في نظر سعاده، هي التي تقدّم الحقيقة الخيّرة والجميلة، إلا أن سعاده يفهم خير الإنسانية على أنه خير مجتمع رائد يمتدّ (بالحقيقة التي صنع لنفسه وبالفاعلية الفكرية التي تميّزه) إلى كل العالم، دون أن يُخاطبه(في إشارة، هنا، إلى رسالة سعاده إلى شارل مالك سنة 1938(الأعمال الكاملة، م3، ص262)، حيث يذكر له فيها أن الفكر السوري امتدّ قديماً إلى الأغريق من غير أن يخاطبهم، كما امتدّ الفكر الأغريقي إلى الأمم الغربية وشرقي المتوسط من غير أن يتصوّر إقليماً معيّناً من أقاليم العالم ويخاطبه).

من ناحية أخرى، ينفي سعاده عن حركته القومية الاجتماعية تهمة التقليد التي رماها بها عمّال الانتداب الفرنسي- البريطاني على سورية، في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، الذين ادّعوا، مغرضين، أن فلسفتها ونظامها وأفكارها وشعاراتها ما هي إلا تقليد للأحزاب والنظريات السياسية الأوروبية، مؤكداً، في نفيه، على ميزة الابتكار والإبداع والأصالة في فكرة حركته القومية ونظامها ومؤسساتها. يقول بهذا المعنى: "إن الحزب السوري القومي الاجتماعي نشأ بتفكير الإبداع السوري المستقل، ومؤسسُه لم يكتفِ بالنظرة الأوّلية التي لم يتجاوزها حزب من الأحزاب في سورية والشرق الأدنى، بل وفي أقسام وجماعات كثيرة في أوروبا عينها، [الأحزاب والمنظمات] القائلة بالحرية والاستقلال، أو بتحسين بعض الأمور العارضة أو الوقتية (...) ففضلاً عن تعيين الأمة وتحديد القومية وإيجاد عقيدة وحدة الأمة، قد نظر [مؤسس الحزب] في مستقبل الأمة وما يجب أن تصل إليه من الإرتقاء والبحبوحة والعدل الإجتماعي- الاقتصادي" [10].

ولذلك يعتزّ سعاده بإنجازه الفكري مطمئناً أنصاره إلى أنهم "يجاهدون، ولهم عقيدة كلية [Global] تشمل جميع مناحي الحياة الاجتماعية (...) وأنهم يحاربون واثقين من أنهم يشيدون تمدناً جديداً أفضل من التمدن القديم الذي وضع قواعده أجدادهم الأولون. فهم، من الناحية الفلسفية الأساسية، في طليعة الأمم التي تسعى لإيجاد عالم أفضل من الموجود (...) وأنهم يشعرون بأنهم يقدرون أن يفيدوا الشعوب الأخرى، في جميع القارات على السواء، بتفكيرهم الجديد" [11]. ). حجته في ذلك، ما قدّمته سورية، أمته، في الماضي، من إنجازات أساسية للبشرية، كاختراع الأبجدية، والثورة الزراعية، وتنظيم المدن، وفن سلك البحار، والتوسع العمراني والثقافي في البحر السوري المعروف في الجغرافية بالمتوسط ، وما تقدر على تقديمه، اليوم، من أفكار جديدة لصالح الإنسانية جمعاء. ولكنه، يشترط على أن هذه المنزلة السامية لا يمكن بلوغها "إلا بالاتصال بنظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن مشتملة على حقيقة أساسية صالحة لأنشاء عالم جديد من الفكر والشعور، إذا لم يكن هو العالم الأخير، الأسمى على الإطلاق، فهو عالم فوق العوالم الماضية ودرجة لا بدّ منها لاطراد ارتقاء الإنسانية النفسي. ولذلك هو عالم خالد، لأن ما سيأتي بعده في الآباد البعيدة سيصدر عنه ويثبّت نفسه عليه، وسيكون ذا اتصال وثيق بعالم نظرتنا الجديدة وحقائقه وقضاياه"(12).

**2-في مصطلح "المدرحية":**

كلمة "مدرحية" هي لفظة مركبة، منحوتة من كلمتي"مادة" و"روح" وتؤكد على ترابطهما، ويقال: مدرحي ومدرحيون. والمدرحية فلسفة للمجتمع لا للفرد، وهي تقول بأن كل تطور إنساني هو تطور مادي- روحي(مدرحي) لأنه يمثل فعلاً في المادة ناشئاً عن مستوى روحي(نفسي) معيّن. استعملها سعادة بالمعنى، لأول مرة، في خطابه، في الجالية السورية، في الأرجنتين، سنة 1939، عشية الحرب العالمية الثانية، بقوله: "إننا نشهد الآن صراعاً عنيفاً، في حرب عالمية هائلة، لم يسبق لها مثيل، بين نظريات الشيوعية والاشتراكية، القائمة على الأساس الماركسي الذي يفسّر الحياة ويريد إقامة نظام جديد، في العالم كله، بالمبادئ المادية، ونظرية الفاشيين والاشتراكيين القوميين، القائمة على الأساس المزينياتي والنيشوي، الذي يفسر الحياة ويريد إقامة نظام جديد، في العالم كله، بالمبادئ الروحية. إن النهضة القومية الاجتماعية تعلن أن ليس بالمبدأ المادي وحده يفسّر التاريخ والحياة تفسيراً صحيحاً، ويشاد نظام عام، ثابت، في العالم. وأن ليس بالمبدأ الروحي وحده يحدث ذلك. إننا نقول، بأن التاريخ والحياة يفسران تفسيراً

صحيحاً بمبدأ جامع- بفلسفة جديدة تقول إن المادة والروح، هما ضروريان، كلاهما، للعالم. إن النظام الجديد للعالم لا يمكن أن يقوم على قاعدة الحرب الدائمة بين الروح والمادة- بين المبدأ الروحي والمبدأ المادي- بين نفي الروح المادة ونفي المادة الروح، بل على قاعدة التفاعل الروحي- المادي تفاعلاً متجانساً، على أساس مادي- روحي يجمع ناحيتي الحياة الإنسانية( أي الناحية المادية والناحية الروحية العقلية). بهذا المبدأ- بهذه الفلسفة، يضيف سعاده، يجد العالم الحل الصحيح لمشاكل حياته المعقدة، والأساس الوحيد لأنشاء نظام جديد تطمئن إليه الجماعات الإنسانية كلها وترى فيه إمكانيات الاستقرار السلمي واطّراد الارتقاء في سلم الحياة الجيّدة"(13).

واستعملها بالمعنى، في المرة الثانية، في خطابه، في أول آذار/ مارس 1940، في الأرجنتين، أيضاً، بقوله "إن الحركة السورية القومية الاجتماعية لم تأتِ سورية فقط بالمبادئ المحببة، بل أتت العالم بالقاعدة التي يمكن عليها استمرار العمران وارتقاء الثقافة. إن الحركة السورية القومية الاجتماعية ترفض الإقرار باتخاذ قاعدة الصراع بين المبدأ المادي والمبدأ الروحي أساساً للحياة الإنسانية، ولا تقف عند هذا الحدّ، بل هي تعلن للعالم مبدأ الأساس المادي- الروحي(المدرحي) للحياة الإنسانية ووجوب تحويل الصراع المُميت إلى تفاعل متجانس يُحيي ويُعمّر ويرفع الثقافة ويسير بالحياة نحو أرفع مستوى" [14].

أما استعمالها بالإسم، كمفردة مستقلة، فقد جاء في بحثه المعنون **جنون الخلود** الذي نشره على حلقات بين عامي 1941 و1942، وهو في المهجر أيضاً، حيث يقول، في ردّه على الشاعر رشيد سليم الخوري الملقب بـ"الشاعر القروي"، أن من استعارات الخوري قوله في الدين الإسلامي إنه "مدرحي" أي "مادي روحي معاً"، فقد يظن القارئ غير المطلع أن هذا القول هو فكرة جديدة فلسفية للخوري، والحقيقة إنه مأخوذ من كتاب **نشوء الأمم** لسعاده ومن شرحه لمبادئ الحزب السوري القومي الإجتماعي[15].

وللحقيقة، هنا، أشير، لأول مرة، إلى أن عبارة"مدرحي" هي لرشيد الخوري لا لسعاده، وإن استقاها الخوري من عبارة سعاده :"مادي- روحي" الذي كان يستعملها في وصفه لجوانب الحياة الإنسانية، المادية والروحية. أما عبارة"مدرحية" فهي لسعاده وترمز إلى فلسفته التي تقول بالأساس المادي- الروحي للتطور الإنساني. يروي سعاده كيف أن رشيد سليم الخوري أخذ هذه الفكرة الفلسفية العظيمة التي كان قد شرحها، قولاً وكتابة، في مناسبات عديدة، مع أن عقله(الخوري) لا يطيق إدراك عمقها وأهمية القضايا الإجتماعية التي تشتمل عليها، فمسخها وجعلها مجرّد كلام سطحي يقصد به إيجاد مقابلة استبدادية بين الأديان الثلاثة، فقال(الخوري) بأن"الدين المسيحي دين تصوري لا ينفع الدنيا لانفصاله عنها ولا الآخرة لعدم حاجتها إليه. وهو نقيض الدين اليهودي الذي هو مادي صرف. أما الدين الإسلامي "فمدرحي" إذا صحّ النحت والتركيب، أي مادي وروحي معاً"(16).

نص آخر يذكر فيه سعادة كلمة "مدرحية" بالإسم هو رسالته الثانية من المغترب الأميركي إلى أعضاء حزبه في الوطن بتاريخ 10 كانون الثاني 1947، يقول فيها:"إن أساس الارتقاء الإنساني هو أساس مادي- روحي (مدرحي) وإن الإنسانية المتفوقة هي التي تدرك هذا الأساس وتشيد صرح مستقبلها عليه" [17].

نص ثالث يذكر فيه سعادة "المدرحية" بالاسم، أيضاً، هو محاضرته في مؤتمر المدرسين القوميين الاجتماعيين المنعقد في بيروت في عام 1948 حيث يقول :"إن الحزب السوري القومي الاجتماعي يحمل رسالة القومية الصحيحة إلى الأمة السورية ورسالة الحياة القومية الإجتماعية وفلسفتها المدرحية إلى الأمة السورية وإلى الأمم جميعاً"(18).

وتجدر الإشارة إلى وجود نصوص كثيرة لسعاده، خصوصاً في كتيب **التعاليم**(1936) وكتاب **نشوء الأمم**(1938) وكتاب **الصراع الفكري في الأدب السوري**(1942)، تشرح الفكرة المدرحية دون أن تذكر العبارة بالإسم. على أنه لم يترك مجالاً للشك، في العديد من هذه النصوص الموزعة بين المقالة الأدبية والقصة والرسالة والدراسة العلمية، في أنه يوضح فيها نظرته كفلسفة جديدة "تنقد" العالم من "تخبط" الفلسفات الماركسية والإشتراكية القومية والمادية الرأسمالية و"ضلالها"، على ما جاء في رسالته المذكورة أعلاه إلى أعضاء حزبه وإلى السوريين عامة .

**1-المدرحية توليفة أم فلسفة أصيلة؟**

إذا كانت المدرحية، لغة، اسم مركب من كلمتي "مادة" و"روح"، فهل يعني أن المدرحية، كفلسفة، تشكل اتجاهاً وسطاً يهدف إلى التوفيق بين الفلسفتين المادية والروحية؟

وصف سعاده الفلسفة بأنها تأويل نظري يهدف إلى بلوغ الحقائق الأساسية من خلال دراسة أحداث واقعة في التاريخ(19). وعليه، فالفلسفات، على تعدّدها واختلاف مسمياتها ومناهجها، هي مجرّد تأويلات أو مقاربات أو ترجمات[Interpretation] نظرية للوقائع التاريخية، والحقيقة الفلسفية المستخلصة من دراسة أحداث أو وقائع معيّنة في التاريخ، هي حقائق متعدّدة بتعدّد التأويلات أو الترجمات الفلسفية لها، ما يعني أن الحقائق الأساسية هي التي تُعطي الفلسفة التي تنتظم فيها، قيمتها، فنميّز بين فلسفة صحيحة، وأخرى زائفة. وقد اعتاد دارسو الفلسفة ومؤرخوها أن يروا في الفلسفة الصحيحة تلك التي تُسهم فعلياً في خير الإنسانية وتقدمها، وقد أجاد أصحاب الفلسفات المادية والمثالية، ومنهم سعاده نفسه، التعبير عن هذه الخاصية الفلسفية، إلا أنهم لم يتفقوا على تعريف واحد للفلسفة الصحيحة. ولنا عودة إلى هذا الموضوع، في مناسبة أخرى، عندما ندرس الجانب القيمي في الفلسفة المدرحية.

كغيره من الفلاسفة، وانطلاقاً من هذا التحديد لمفهوم الفلسفة، قدّم سعاده تأويله الخاص لظاهرة التطور الإنساني، فلم يعد هذا التطور، في نظره، حصيلة عوامل مادية بحت، أو عوامل روحية بحت، بل حصيلة عوامل مادية – روحية (مدرحية)، معتبراً الفلسفة المادية (الماركسية) وصنوها الفلسفة الروحية المثالية (الهيغلية) فلسفتين جزئيتين مضلّلتين، لاكتفائهما بعامل واحد، مادي أو روحي، في تفسير التطور الإنساني، ولاعتبارهما العالم/ عالم حرب مهلكة بين القوى المادية والقوى الروحية، داعياً الأمم إلى الأخذ باتجاه ثالث يرتكز إلى أساس مادي- روحي (مدرحي)، يجمع ناحيتي الحياة الإنسانية، المادية والروحية، في تفاعل مثمر. الأمر الذي تأكدت صوابيته بعد سقوط الشيوعية السوفياتية وانفجار الرأسمالية المتوحشة وتصاعد الدعوات، هنا وهناك، إلى حاجة العالم المعاصر إلى طريق ثالث يدرس، على أساسه، مستقبله ومصيره.

يستنتج الدارس للنصوص المرفقة بهذه الورقة (أنظر: **ملحق 2: نصوص، ص. ص 21-26**) مجموعة من الأفكار التي لم يسبق له، في اعتقادي، أن قرأ مثلها في التراث الفكري العربي، الحديث والمعاصر، ويمكنه، بالتالي، تصنيفها وفق مستويين: نظري وتطبيقي.

**أ- على المستوى النظري**، يخلص الدارس إلى الإستنتاجات التالية:

1-تتحدث النصوص كلها عن دور لسورية في العالم يحضّها على أن لا تقف مكتوفة اليدين بينما العالم، من حولها، يهلك في صراع مدمّر بين الانظمة الرأسمالية المحافظة والأنظمة الكلية الجذرية، الفاشية والإشتراكية، على السواء.

2-انقسام العالم إلى محورين أو جبهتين متناحرتين، إبان الحربين العالميتين الأولى والثانية، مرده إلى تناقض في المصالح بين الأمم المتحارية، واختلاف النظريات الفلسفية في تفسير التطور الإنساني، ما بين ترجمتين متناقضتين: الأولى مادية والثانية روحية.

3-اعتبار الفلسفات المتمسكة بتفسير واحد للتطور الإنساني، مادي أو روحي، فلسفات جزئية، قاصرة، تصفها النصوص بجملة نعوت (من مثل): الرأسمالية فلسفة خانقة، والماركسية فلسفة جامحة، أما الفاشية والنازية ففلسفتان محتكرتان للروح.

4-دعوة صريحة إلى ترك عقيدة تفسير التطور الإنساني بالمبدأ الروحي وحده، وعقيدة تفسيره، من الجهة الثانية، بالمبدأ المادي وحده، والإقلاع، أي الابتعاد، عن اعتبار العالم، ضرورة، عالم حرب مهلكة بين القوة الروحية والقوة المادية، والتسليم بحاجة العالم المعاصر إلى فلسفة جديدة جامعة تنقذه من ويلاته، هي الفلسفة المدرحية التي تقول بأن أساس الارتقاء الإنساني هو أساس مادي- روحي (مدرحي).

1-حيث تعجز الماركسية والفاشية عن تقديم الحلول الناجعة للقضايا الاجتماعية المعقدة تبتدئ الفلسفة المدرحية، كما تذهب النصوص، في تقديم نظرات جديدة في المجتمع بأشكاله النفسية والاقتصادية والسياسية.

2-إذا كانت الماركسية المادية، بمعنى من المعاني، هي المعطى (Thèse)، والفاشية الروحية هي النقيض (Antithèse) – أو العكس- فإن المدرحية هي المخرج النظري الجامع والموحّد بين المعطى ونقيضه، أو (Synthèse). وقد جاء في النص، بهذا المعنى، أن فلسفة سعادة تبحث في المبادئ الماركسية المادية

لتنظيم المجتمع والمبادئ الفاشية الروحية والصراع بينهما، ثم في المبدأ المدرحي الذي يخرج من القاعدتين المتصادمتين بقاعدة جديدة واحدة يمكن أن تجمع عليها الإنسانية.

ولكن القارئ المتسرّع لهذه النصوص، يبدو له، للوهلة الأولى، أن سعاده فيلسوف توفيقي، خصوصاً باعترافه لكل جانب من جوانب الحياة - الجانب المادي والجانب الروحي- بأنه يقبض على جزء من الحقيقة. فبدلاً من الروحية الخالصة والمادية الخالصة، نراه يقدّم الروحية – المادية أو روحية لا تستغني عن المادة ومادية لا تستغني عن الروح، ما يشي بنزعة توفيقية في نظرته إلى الحياة وعوامل التطور. حجة هؤلاء القراء أن سعاده اعتمد أكثر من مرة، وفي أكثر من حالة، مبدأ المخرج النظري أو الـ Synthèse الذي يجمع بين أطروحتين متناقضتين: مادية وروحية، سالبة وإيجابية.

لقد عمد سعاده مرة إلى تقديم "القومية السورية" التي ينادي بها على أنها مخرج نظري من تناقض أطروحتي "القومية" العربية و"القومية" اللبنانية. ولعلّه، أمام هذه المعضلة، لم يجد بداً من التمييز عملياً بين الجانب الوصفي(descreptif) للقومية الذي أوصلته إليه أبحاثه وتجاربه ودروسه، وبين الجانب المعياري (normatif) الذي يقترح حلاً لمأزق تاريخي- اجتماعي قائم. ولذلك، اعتبر سعاده أن القومية السورية هي المخرج النظري من التناقض القائم بين العروبة الإنفلاشية المشبعة بالإسلاموية، والإنعزالية اللبنانية المسيحية الموصوفة بنعرتها الفينيقية الأنتي- عربية، بل هي الحل العملي للخروج من حلبة التناقض والتناحر والتصادم بين تينيك النزعتين المتطرفتين، حلّ يقوم على معادلة جديدة قوامها الإشتراك في الحياة الواحدة على قاعدة الأخوة القومية الجامعة. يقول سعاده، بهذا المعنى:"إذا كانت هاتان النعرتان الدينيتان تضعان نظريتين متعارضتين فمما لا شك فيه أن مبدأ وحدة الأمة السورية المؤلفة من سلالتين أساسيتين: مديترانية وآرية، هو المبدأ الذي يقدّم ال(Synthese) أو المخرج النظري من تعارض النظريتين، مذهباً واحداً هو القومية. إن في هذا المبدأ إنهاء جدل عقيم يُهمل الواقع المحسوس ويتشبّث باللاحسي- جدل يحلّ علم الكلام محل علم الإجتماع"(20).

إن هذا المبدأ، مبدأ القومية، يُضيف سعاده، يُنقذ السوريين من النعرات الدينية والدموية، (كالنعرتين العربية واللبنانية) التي من شأنها إهمال المصلحة القومية العامة والانصراف إلى الانشقاق والفساد والتخاذل. انطلاقاً من هذا المبدأ الجامع، والذي يُمكن التعبير عنه بمصطلح" الوجدان القومي" لا يعود يهمّ السوريون المتحدّرون من أصل آرامي، مثلاً، إثارة نعرة دموية آرامية ضمن الأمة والبلاد ما دام هنالك اتباع لمبدأ الوحدة القومية، والتساوي في الحقوق والواجبات المدنية والسياسية والاجتماعية، بدون تمييز بين فارق دموي أو سلالي. وكذلك لا يعود يهمّ المتحدّر من أصل فينيقي(كنعاني) أو عربي أو صليبي سوى مسألة متحدة (مجتمعه) الذي تجري ضمنه جميع شؤون حياته، والذي على مصيره يتوقف مصير عياله وذريته وآماله ومثله العليا(21).

على أن هذه التوفيقية الموحاة لبعض القراء والكويتبيين تسلط الضوء على ديالكتيكية سعاده التي تختلف عن ديالكتيكية كل من هيغل وماركس وأتباعهما. فالمخرج النظري أو Synthese في الديالكتيك السعادي يختلف عن معادله في كل من الديالكتيك الهيغلي والماركسي، فلا يدين ديالكتيك سعاده لأي من الأطروحتين المتضادتين( These et Anthithese) بأي فضل – اللهمّ بالحضّ على البحث عن المخرج النظري.

وهناك جانب آخر من جوانب فكر سعاده الديالكتيكي هو تشديده الدائم على الجانب القيمي في أي صراع قومي أو إجتماعي، فالحرب التي تنشب بين الحق والباطل، مثلاً، لا بدّ أن تنتهي بانتصار الحق انتصاراً نهائياً على الباطل، وهذا ما يفرقه عن أشكال الديالكتيك الأخرى. فالتناقض والصراع، هنا، بين الحق والباطل، كأطروحتين متناقضتين، لا يأتي بمخرج نظري، على طريقة الديالكتيك الهيغلي أو الماركسي، مخرج يتأهل لأن يُصبح مُعطى جديد في مقابل نقيض جديد. وحده، الانتصار الحاسم والنهائي للحق على الباطل في معركة إنسانية تجري في هذا العالم، هو المخرج الوحيد أو النهائي من تناقض هاتين الأطروحتين، أو الحتمية الأكيدة التي ما بعدها حتمية. ولعله انطلاقاً من هذا الفهم، ألصق سعاده صفة "الضلال" بالفلسفتين المادية والروحية اللتين أوردتا العالم مورد التهلكة، حسب تعبيره.

ولإيضاح هذه المعادلة، يقدّم سعاده مثلاً فهمه للأنواع، وخصوصاً النوعين الحيواني والبشري اللذين يشتركان في صفات كثيرة، فهو إذ يعترف أن هناك صفات بشرية قد تكون متوارثة، فإنها حتماً لم تنتقل

إلى الإنسان من الحيوان وإن اشتركا فيها معاً. وإذا كان الإنسان، من الوجهة الإحصائية، يقع في جدول الحيوانات المتجمهرة، فلا يعني ذلك، لسعاده، أن بين الإنسان وبين الحيوانات والحشرات المذكورة قرابة اجتماعية تمكن من استخراج أقيسة عامة تطبّق على كلا الحيوان والإنسان. وإن من أكبر الأخطاء التي وقع فيها بعض المشتغلين في العلوم الاجتماعية محاولتهم تطبيق أحوال المجتمع الإنساني على مظاهر تجمهر الحيوانات والحشرات واتخاذ قواعد اجتماعية من هذا التجمهر ومظاهره(22).

وإذا كان الإنسان، في مثال آخر، يتفق وسائر الحيوان في مبدأ المحافظة على النوع وخدمة النسل، فإن ظروف تطبيق هذا المبدأ عند الإنسان يختلف عنها عند الحيوان. فمع أننا لا ننكر نصيب عوامل حفظ النوع في اجتماع الإنسان، فإن اجتماعه لا يصح أن يقابل بتجمهر الحشرات لعدم صحة أسباب هذا التجمهر عليه، فالإنسان، عكس الحشرات، غير مضطر إلى التجمهر لأقامة النسل(23).

وعليه، نخلص إلى القول إن الاجتماع في الكائنات الحيّة أنواع، لكل نوع منها خصائص لا تتعداه إلى نوع آخر، وإن تطبيق الاجتماع الإنساني على مظاهر التجمهر في الحشرات والحيوانات الدنيا أو بالعكس غلط فادح سببه جهل مرتكبيه العوامل البيولوجية المختلفة في أنواع الاجتماع المختلفة.

وسواء أكان الاجتماع البشري "موروثاً من اجتماع سابق الطور البشري، أم حادثاً بعد نشوء البشرية، فما يهمنا منه أنه أمر واقع ملازم للبشرية، وأن خصائصه ملازمة لخصائص الإنسان حتى أنه يستحيل تطبيق مقاييس اجتماع الحيوان ونظمه عليه، ويمتنع كل وجه لجعل الاجتماع الحيواني قياساً له"(24).

وإذا عمدنا إلى الفوارق الاجتماعية، يقول سعاده، وجدنا في الاجتماع الإنساني ظاهرتين مفقودتين في غيره، هما: استعداد الفرد لبروز شخصيته، واكتساب الجماعة شخصيتها التي تكونها من مؤهلاتها الخاصة وخصائص بيئتها. وهاتان الظاهرتان اللتان تميزان الاجتماع البشري تمييزاً شديداً لا وجود لهما في عالم الحشرات والحيوانات، يستطرد سعاده، الأمر الذي يجعل لأعمال الإنسان صفة مستقلة تُبطل كل مقابلة "اجتماعية" بين الإنسان والحيوان، ويكشف عن الفارق الأساسي بين الإنسان والحيوان، ألا وهو: ظهور الفكر الذي له كل الأهمية في الحياة والاجتماع الإنسانيين(25).

وكذا الحال بالنسبة للمدرحية التي تشترك مع كل من المادية والروحية في صفات مشتركة، إلا أنها لم تتطور من أي منهما. فمع أن المدرحية، كفلسفة، تعترف بالدور الكبير الذي قامت به الفلسفتان المادية والمثالية الروحية في مقاربة قضية التطور الإنساني بالكشف عن قوانينه وعوامله وأطواره إلا أنها لا تقرّ بالنظرة الآحادية، المادية أو الروحية ، لكلا الفلسفتين، لاعتبارها أن التطور الإنساني هو تطور مادي- روحي معاً.

**ب-** أما على **المستوى التطبيقي** فيمكن استنطاق النصوص الخلاصات التالية:

1-إن الطبقات والنظام الطبقي الذي نشأ بعامل الثورة الصناعية أدّت/ وأدّى إلى تشنجات اجتماعية هائلة، خصوصاً في البلدان المتطورة، ولم تكن لها /أو له نتيجة غير الحضّ على حرب الطبقات ضمن المجتمع الواحد، وقيام النظام الطبقي الأممي على صعيد العالم.

2-حلول الدول الصناعية الكبرى، على المستوى العالمي، محل العائلات الإقطاعية على المستوى الوطني، في استغلال موارد الأمم الضعيفة، ونهب خيراتها، متسترة: بعضها بقضايا الطبقات والعمال كالاتحاد السوفياتي سابقاً، وبعضها بقضية الحرية وحقوق الإنسان كالدول الغربية، بشكل عام. ولذلك تساوي هذه النصوص بين الرأسمالية الانترنسيونية والشيوعية الأممية وتعتبر أنهما تحولتا إلى إقطاعية دولية. ولذلك لم تتمكن الشيوعية كما لم تتمكن الفاشية من حل مشكلة المجتمع الداخلية ولا مشكلة الحق الأنترنسيوني.

**-مبررات الفلسفة المدرحية:**

بعد هذا التحليل للأفكار الواردة في مجموعة النصوص المرفقة، ننتقل إلى عرض المبررات التي ساقها سعاده للتأسيس لفلسفته الجديدة، والتي يمكن تحديدها في مبررين اثنين:

**الأول:** فهمه العميق لكيفية نشوء المجتمع الإنساني وتطوره، بعد دراسة مستفيضة لعملية النشوء والتطور هذه ضمّنها كتابه العلمي"نشوء الأمم". وبنتيجة قراءته لهذه العملية التطورية، الطويلة والمعقدة، تبيّن له أن المجتمع الإنساني تطوّر، تاريخياً، من حالة التوحش والبربرية التي ظهر فيهما إلى حالة المجتمع العمراني أو المتمدن، وفقاً لتطور قواه المادية والروحية، التي عيّنت مجتمعة، عوامل نشوئه

وتطوره. فالتطور لم يحصل نتيجة عامل واحد، مادي أو روحي، بل حصل نتيجة تضافر العوامل المادية والروحية معاً: "فكما أن التطور الإنساني، نشوءاً وارتقاءً، كان وفاقاً لمقتضيات تطورات الطبيعة والبيئة، أي أنه تطور محتّم بالاختبار الطبيعي لا مفضّل بالاختبار العقلي. كذلك التطور الاجتماعي. فإذا كان العقل نتيجة تطورات الدماغ الفيزيائية، فالعقلية الاجتماعية نتيجة تطورات التفاعل المادي لتأمين الحياة الاجتماعية"[26].

وعليه، فإن الثقافة النفسية "جارت الثقافة المادية وقامت عليها إذ الحياة العقلية لا يمكن أن تأخذ مجراها إلا حيث تستتب لها الأسباب والمقومات. ولذلك نجد التطور الثقافي، بجميع مظاهره، يرتقي ويسبق غيره حيث أسباب الحياة أوفر وأرقى مما في سواه"[27].

**الثاني**: مشاهدته العينية، ومراقبته المباشرة للحروب بين الأمم، خصوصاً الحربين العالميتين الأولى والثانية، وما جرّته وتجرّه الحروب على العالم من ويلات وفتن ومآس. وقد رأى سعاده، بأم عينه، وخبر بنفسه الأهوال التي عاشها أبناء بلاده والمجاعة التي عرفوها إبان الحرب الأولى والتي دفعته مراراً إلى التساؤل عن أسباب هذا الويل.

وإذا كان سعاده يجد مبررات هذه الحروب في السباق بين الأمم على التفوق وامتلاك الثروة والمواد الأولية- وقد تكون مبررات واقعية- إلا أنه لم يقتنع بالدعوات المستميتة يطلقها هذا الفريق أو ذاك، تحت عناوين خادعة، لإلغاء الآخر وتدميره، دعوات تغذيها الفلسفات الجزئية المادية، من هنا، والروحية، من هناك، والتي لا ترى العالم إلا ساحة صراع هائل، صراع لا ينتهي إلا بغلبة إحدى القوتين القوة الأخرى والقضاء عليها قضاء مبرماً.

هذه المشاهدة العيانية للويل الذي تجره الفلسفات المتناحرة على العالم دفعت سعاده إلى أن يعلن عن فساد تلك المبادئ وضررها على الهيئة الاجتماعية، وضرورة استبدالها بفلسفة جديدة جامعة للقوى الإنسانية، فلسفة تحترم بنية الوجود الإنساني العام القائمة على أساس مادي- روحي(مدرحي).

---

**الهوامش:**

1- سعاده، أنطون، كتاب التعاليم، بيروت، 1960، ص 83.
2- تأسّس الحزب السوري القومي الاجتماعي في بيروت سنة 1932. وتدعو مبادؤه إلى القومية السورية الاجتماعية والجبهة العربية الواحدة.
3- سعاده، كتاب التعاليم، المرجع نفسه، ص 82.
4- سعاده، شروح في العقيدة، بيروت 1958، ص 183.
5- سعاده، الأعمال الكاملة، م4(1941-1940)، مؤسسة سعاده للثقافة، ط1، بيروت 2001، ص23.
6- سعاده، الأعمال الكاملة، م5، جنون الخلود(1942-1941)، مؤسسة سعاده للثقافة، ط1، بيروت، 2001، ص157- 158.
7- أنظر: حاماتي، هنري، أفكار، ج2، قواعد أولى، بيروت 1989، ص6-9.
8- سعاده، شروح في العقيدة، المرجع المذكور، ص30.
9- سعاده، الصراع الفكري في الأدب السوري، بيروت 1978، ص70.
10-سعاده، الأعمال الكاملة، م6 (1943-1942)، مؤسسة سعاده للثقافة، ط1، بيروت، 2001، ص97.
11-سعاده، الأعمال الكاملة، م6 (1943-1942)، المرجع المذكور، ص98.
12-سعاده، الصراع الفكري.. المرجع المذكور، ص 95- 96.
13-سعاده، الأعمال الكاملة، م3(1939-1938)، مؤسسة سعاده للثقافة، ط1، بيروت 2001، ص448-449.
14-سعادة، الآعمال الكاملة، م4(1940- 1941)، المرجع المذكور، ص23.
15- سعاده، الأعمال الكاملة، م5، جنون الخلود(1942-1941)، المرجع المذكور، ص157.
16-من محاضرة لرشيد سليم الخوري أعدّها لمولد النبي محمد ونشرتها جريدة"الرابطة" في سان باولو، البرازيل، ابتداء من العدد 527 الصادر في 8 حزيران 1940، نقلاً عن كتاب سعاده، جنون الخلود، المرجع المذكور، ص 158 .

17-سعاده، الأعمال الكاملة، م7،(1944- 1947)، مؤسسة سعاده للثقافة، ط1، بيروت 2001، ص 179.
18-سعاده، الأعمال الكاملة، م 8، ط1، مؤسسة سعاده للثقافة، بيروت 2001، ص226.
19-أنظر: (أ) مقدمة كتاب "نشوء الأمم"(1938) لسعاده، حيث يقول أنه تعمّد في هذا الكتاب الإبتعاد، قدر الإمكان، عن "التأويلات الفلسفية" مكتفياً بالصفة العلمية التقريرية الصرف.
(ب) حلقة فكرية جمعت كبار مثقفي الحزب وأدارها سعاده بنفسه في بيروت، في العام 1948، ونشرتها جريدة "الجبل الجديد" في حينه، وجاء في كلام سعاده:"نرى هناك حقيقة عملية واحدة: يقوم عالم ويُعطي تأويلاً معيناً ويقوم فيلسوف فيعطي تأويلاً آخر معيناً مختلفاً عن فيلسوف آخر. فظاهرة واحدة ثابتة تعطي مجالاً لتأويلات متنوعة. فأي واقع اجتماعي أو نظام يمكن أن يؤدي الى اختلاف نظرات أو فلسفات لهذا الواقع نفسه في ترجمة الأحوال السياسية"(جريدة البناء، أول آذار، 1971).
20- سعاده، الأعمال الكاملة، م 8، ص 48.
21- سعاده، الأعمال الكاملة، م 8، ص 48.
22-سعاده، نشوء الأمم، طبعة جديدة، مؤسسة سعاده للثقافة، بيروت 2001، ص 56.
23- سعاده، نشوء الأمم، المرجع المذكور، ص 58.
24- سعاده، نشوء الأمم، المرجع المذكور، ص 57.
25- سعاده، نشوء الأمم، المرجع المذكور، ص 59.
26- سعاده، نشوء الأمم، المرجع المذكور، ص 83.
27- سعاده، نشوء الأمم،المرجع المذكور ، ص 89.